

انطون سعادہ

الآثار الكاملة الجزء الأول

حاجب التأسيس

1932-1921

البنح مرفقة بالمرئفة قوما
في ١٩٩٣

جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

يحتوي الجزء الأول من الآثار الكاملة لأنطون سعادة على كتاباته الأولى 1921 — 1932 قبل تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي . وفي هذه المرحلة يتضح جلياً الاختمار الفكري والثوري لمنطلقات العقيدة القومية الاجتماعية في عقل الزعيم ووجدانه ويتلمس القارئ المسيرة المصممة الواضحة نحو انشاء الحركة السورية القومية الاجتماعية لشق طريق الأمة في فترة من أصعب فترات نكباتنا القومية .

كان المغترب هو البؤرة التي تميد بالمخاض الفكري والثوري . فقد ساعد المناخ الحر الذي وجد نفر من المغتربين الوطنيين والمثقفين أنفسهم فيه على تفتح نهضة أدبية وفكرية من روادها جبران خليل جبران والدكتور خليل سعادة وأمين الريحاني وفيليب حتي وطائفة كبيرة من رجالات الفكر والسياسة والأدب . وكان الوطن يئن تحت وطأة الاستعباد العثماني ثم الانتقال الى وطأة الاستعباد الفرنسي والبريطاني ومخططات الصهيونية العالمية وهو ممزق شر تمزيق سياسياً واجتماعياً .

وفي هذه المرحلة 1921 — 1932 التي ظهرت كتابات سعادة كان جبران يشرف على آخر مرحلة من حياته ويكتب عن ويلات الحرب على سورية ويرثي شعبه الذي مات جوعاً في « مات أهلي » ، وكان الريحاني يكتب مقالاته السياسية وبدأ فيليب حتي في التنقيب عن تاريخ سورية والتأليف فيه ، وكانت فترة ما بعد المؤتمر السوري في دمشق ومعركة ميسلون ، واشتداد قبضة الانتداب بقيادة غورو على سورية الشمالية وسقوط فلسطين عبر الانتداب البريطاني وتصريح بلفور في قبضة المخططات الصهيونية . وهي فترة يؤرخها سعادة فيما بعد في رسالته « في صدد وضع فلسطين وحالتها الحاضرة وموقف الحزب القومي الاجتماعي » الصادرة بمناسبة 2 نوفمبر 1947 بقوله : « بينما كانت سورية تتخبط في خطط رجعية ، مبنية على غير حقيقتها هي ،

تنويه

أجري تعديلان في هذه الطبعة الجديدة للجزء الأول من الآثار الكاملة . أولهما أن ثلاثة مقالات أضيفت الى الكتاب بعد العثور عليها مجدداً وهي :

- 1 - السياسة الأوروبية - وجهة المسألة الألمانية (ص 164)
- 2 - مضحكات الازمة الحالية (ص 146)
- 3 - الإصلاح الحقيقي (ص 150)

التعديل الثاني كان في اثبات مقالين آخرين سبق نشرهما في الجزء الثاني ، وذلك بعد التحقق من أن سعادة كتبهما في مرحلة ما قبل التأسيس . وهما :

- 1 - قصتان وقد طبعتا للمرة الأولى عام 1931 .
- 2 - التفكير العملي والإصلاح الاجتماعي ، وهي محاضرة ألقيت في 29-1-1932 .

كما ينبغي التنويه الى أن سعادة قد نقل الى العربية مذكرات ولي عهد ألمانيا وقد نشرت على حلقات في مجلة « المجلة » بين عامي 1923 و 1925 لكنها لم تنشر في هذا الكتاب لان مادته تقتصر على مؤلفات سعادة لا على ترجماته .

والجديد الذي سيجده القارئ في هذه الطبعة ، هو فهرس ألفبائي بالأماكن والأعلام والموضوعات ، أثبت في خاتمة الكتاب .

تلك المرحلة يقول سعادته « كان الراسمال اسبق التكون في سورية ، وكان بعد تكونه أكثر ما يكون قناعة بالحال الراهنة وأشد ما يكون خوفاً من انقلابها . فلم يتحرك الراسماليون السوريون لنهضة أو لأمر ، بل تركوا الأمور تجري في أعنتها وعملوا على تكييف أنفسهم للحال الراهنة واستثمارها مدفوعين بعامل الانانية العمياء والمصالح المستعجلة . أما الراسمال الاجنبي فهو قد وجد في حالة الفوضى والتفسيخ القومي مقاتل الفريسة التي يطلبها فسارع الى انشباب مخالفه فيها . . . وتواطأ الراسمال الاجنبي مع الراسمال الوطني والنفعية والانانية الجاهلة يداً بيد وبيعت مصالح أمة بالمزايدة السرية » .

هذه كانت حال الأمة عند ظهور كتابات سعادته الاولى وبدء المسيرة نحو تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي قام ينقض مبادئ « النهضة الرجعية » المتمركزة على : « 1 - انه ليس في سورية أمة . 2 - سورية بلاد صغيرة لا تتمكن من الصمود لعدو ولا تقدر على الحياة مستقلة . 3 - عدم التعرض للنظام الاجتماعي الداخلي . 4 - الدين أساس الدولة . 5 - الاعتراف بصلاحيه رجال الدين للتدخل في شؤون البلاد السياسية والادارية والقضائية . 6 - توفيق الرغبات لجرى الارادة الاجنبية . 7 - عدم التعرض لمسألة مستوى الحياة . 8 - المصلحة الفردية أساس كل مصلحة » .

هذه كانت حالة الأمة ، أما سعادته فقد شهد المأساة القومية على أرض الوطن وهو حدث « . . . كنت حدثاً عندما نشبت الحرب الكبرى سنة 1914 ولكني كنت قد بدأت أشعر وأدرك . وكان أول ما تبادر الى ذهني ، وقد شاهدت ما شاهدت وشعرت بما شعرت وذقت مما مني به شعبي ، هذا السؤال : « ما الذي جلب على شعبي هذا الويل ؟ » ومنذ وضعت الحرب أوزارها أخذت أبحث عن جواب لهذا السؤال وحل للمعضلة السياسية المزمنة التي تدمع شعبي من ضيق الى ضيق فلا تنقذه من دب الال لتوقعه في جب . وكان أن سافرت أوائل سنة 1920 وقد بعثت الاحتقاد المذهبية من مراندها والأمة لما تدفن أشلاءها » . أما الحال في المهجر فلم تكن « احسن الا قليلا . فقد فعلت الدعوات فعلها في المهاجرين فانقسموا شيعا . وكانوا كلهم سوريين » . (كتاب الزعيم من السجن الاول في 15 كانون الاول 1935 الى محاميه الاستاذ حميد فرنجية : « في ما دفعني الى انشاء الحزب السوري القومي الاجتماعي » .)

هذه هي الصورة الكاملة والاطار العريض للمرحلة التي ظهرت فيها كتابات سعادته الاولى قبل تأسيس الحزب والتي هي موضوع هذا الجزء الاول من الآثار الكاملة وبينما كان جبران يحيا آلام أمته ادبسا متفجرا بالرفض وكان فيليب حتي ينقب في تاريخ أمته ويدقق في مراحلها ، وكان الريحاني يكتب الادب السياسي ، كان سعادته يختزن في نفسه في مفاعلة مذهلة ورائعة بين الوجدان

للتخلص من سيادة الاتراك ، وتفعل كل ما في وسعها لنصرة « الحلفاء » كانت بريطانية العظمى وفرنسة تنظران الى سورية نظرها الى قسم من تركة « الانسان المريض » الذي عبروا به عن تركية ، وتتفقتان على اقتسامها فيما بينهما في جملة الحرب » . و « لم تكن لسورية ، في ذلك الوقت نهضتها القومية الاجتماعية المثبتة شخصيتها وحقوقها ، فلم تتمكن من الوقوف في وجه تلك المساومات الغربية والصفقات المنكرة ، ولا من اعلان بطلان كل تسوية اجنبية - سياسية حقوقية على حسابها » . وعلى أساس معاهدة سايكس - بيكو تم تصريح بلفور الذي هو « بيع فلسطين لليهود » « ولم يكن في سورية ، في ذلك الوقت وعي قومي ولا نهضة قومية . كانت أولى اختلاجات توتها الى الحرية والنهوض ، اختلاجات العقليّة الرجعية التي لم تكن غير الرجوع الى حالة ماضية عارضة . لم يكن لسورية أمر ولم ير أول الناشطين انه يجب ان يكون لها أمر وأن يكون أمرها في يدها . . . » . « الرجعية كانت تقول : الخلاص يجب ان يأتي دائما من الخارج ! » « لم يكن يخطر في بال أحد ان يفكر في انشاء جيش سوري لتحرير سورية ليس لانه لا يوجد في سورية رجال يصلحون للحرب بل لان الرجعية كانت تجهل وجود حقيقة سورية . ولان التفسيخ الروحي الداخلي وانقسام الشعب على ذاته في الحزبيات الدينية لم يجعلها ممكنا في التفكير في انشاء جيش سوري » .

وفي مصدر آخر هو خطاب الزعيم في اول آذار 1938 يؤرخ هذه المرحلة فيقول : « كان التضعض القومي عاما وكاد يقضي على شخصية الأمة قضاء مبرماً فلم يبق لها سوى بعض المؤسسات من المراجع الدينية والمعابد والسلطة الاتطاعية ونظام العشيرة او رابطة العائلة الدموية ، ثم آذنت السلطنة العثمانية بالتفكك والانحلال وأخذت عوامل الشخصية السورية تختلج اختلاجات الحياة وتتلمل وتوجدت في تضارب مصالح الدول الكبرى ومصالح الدولة العثمانية فرصة تساعدها على التلمص من قبضة تركية . ولكن المعنويات كانت لا تزال صرعى وظلمة الخمول مخيمه على الشعب . فعاد الأمر الى المؤسسات القديمة وبعض الافراد الذين بنوا نظرياتهم على تلك المؤسسات واستمدوا فلسفاتهم السياسية منها . فكانت النتيجة تخبطا اختلطت فيه السياسة بالدين والاجتماع بالسياسة اما الاقتصاد فلم يكن له اثر » .

« والاقتصاد لم يكن له اثر » عند الجانب الوطني أما المستعمر فقد ركز استعماراه عليه . يقول سعادته في مقاله « شق الطريق لتحيا سورية » المنشور في مجلة « الجمهور » في 14 يوليو سنة 1937 حول تلك المرحلة بالذات فيقول : « في هذه الحال التي عرفت فيها الأمة السورية استعبادين : الخضوع للاقطاعي المتحكم في رقاب الفلاحين وخضوع مجموع الأمة للطاغية الاجنبي نام لوجدان القومي في سورية نومه العميق وأضاعت الأمة شخصيتها في لشخصيات الدينية المتضاربة المصالح وفي المسؤوليات اللاقومية . . . » وفي

القلق الباحث عن المصير وآلام المرحلة ، الجواب عن سؤاله الكبير « ما الذي جلب على شعبي هذا الويل ؟ » ولم يكن يطلب « الاجابة على السؤال المتقدم من أجل المعرفة العلمية فحسب . فالعلم الذي لا يفيد كالجهالة التي لا تضر . وانها كنت اريد الجواب من أجل اكتشاف الوسيلة الفعالة لازالة أسباب الويل » وفي هذا اتجه درسه « للمسألة القومية ومسألة الجماعات عموماً والحقوق الاجتماعية وكيفية نشوئها . وفي أثناء درسي أخذت أهمية معنى الأمة وتعقدتها في العوامل المتعددة تنمو نموها الطبيعي في ذهني . وفي هذه الحالة ابتداء انفرادي عن كل الذين اشتغلوا في سياسة بلادي ومشاكلها القومية » . (المصدر نفسه) .

فسعاده انطلق من الشمول والجزرية في معالجة المسألة القومية . في كتاباته أدب الثائر وحنين قومي الى الوطن وانعتاق من تجربة المهجر ومشاهدة حية لهول المأساة القومية ولكن الى جانب ذلك علم المحلل المدقق وتنقيبه ، مشدودة كلها الى تصميم القائد على أن ينتهي المخاض بولادة كبيرة تاريخية تجيب على كل التساؤلات بالممارسة الثورية الرائدة . هو يولي تاريخ الأمة أهميته ولكن في سبيل بعث الوعي القومي ، وهو يكتب بالعبارة الحية المشرقة اللاهبة ولكن ليس أدبا ينوح على الوطن وحسالة بل نفيراً يعبيء الأمة لدفعها أجيالا من الفداء والصراع ، وهو في ذلك كله يوصل معاناته على أرض الوطن بتأملاته في المهجر ، ليضع « الخطة النظامية الدقيقة » للعمل الثوري والنهضوي في أمته وليعود الى الوطن — وفي هذا افتراق عن كل مفكري المهجر — فيفتود الصراع ويستشهد على أرضه .

ولقد ناضل بعض أحرار المهجر نضالا وطنيا محدودا ، فالزعيم يذكر أن أحزاب المهجر الوطنية هي التي فرضت على ولسن بعثة كينغ — كراين التي استفتت السوريين في الوطن في مصيرهم نجاء الى جانب الوحدة والتحرر وخلافا لارادة الانتداب والاستعمار الاوروي ، ولكن سعاده أراد قيادة النضال على أرض الوطن .

ولقد هيا مناخ المهجر الحر مجال التأمل والتفكير ولكن سعاده يأبى الا تجسيد الخلاصات في فكرة حية وفي حركة لها نظامها ومؤسساتها واستهدافات صراعها . وقبل تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي كانت له محاولات تنظيمية عدة . فقد استقال من الماسونية لانها قيدت عمل أعضائها الوطني . وفي سنة 1924 أسس جمعية « الرابطة الوطنية السورية » في سنان بابلو — البرازيل « وأرادها جمعية تنمو سرا وتمتد الى الوطن وتجمع عناصر الشباب وتتجه الى الاعمال الجدية والثورة » وسميت في طورها الاول « جمعية الشبيبة السرية الفدائية » ولكن تجربتها اصطدمت بعقلية الوجاهات وحب الظهور عند أفرادها « فنفض الزعيم يده منهم نهائيا » وأسس « حزب الاحرار » ولكنه بعد اكتشافه عدم جدوى العمل في المهجر لانتقاد الوطن عاد الى الوطن ليؤسس في 1932 الحزب السوري القومي الاجتماعي . ويظهر عند سعاده في مقاله

« سوريا تجاه بلفور » في الصفحة 116 من هذا الكتاب ايمانه بالعمل الثوري المنظم : « اننا قبل كل شيء من الذين يمتقدون بتأثير الجمعيات السياسية السرية . فلما جمعنا الظروف ببعض الاصدقاء لم نتمالك من ابداء رأينا بترجيح القيام بحركة فعلية لا تكون أقل من ثورة تدبرها جمعية او جمعيات تعمل في الخفاء لانتقاد الوطن من الطامعين فيه ، المعتدين على حقوقه الاجتماعية والطبيعية » .

في مجموع المقالات التي تظهر في هذا الجزء الاول من آثار سعاده الكاملة استشراف قيادي ريادي فذ يمتد الى أكثر من نصف قرن . فصحيح أن كتابات المعلم كانت لم تزل في طورها الاول فلا تشتمل على النضج الفلسفي والعقدي الذي تميزت به كتاباته في الاربينات غير أن في كتاباته الاولى هذه رؤى واستشرافات رائدة وهادية تخترق عقود السنين لتنتطبق على ايماننا الراهنة بأشد العبر والدروس .

فلم يفهم امرؤ بلادنا الخطر اليهودي الصهيوني بكل ابعاده كما فهمه سعاده في كتاباته الاولى في العشرينات كما لم يتضح لانسان في تلك الفترة المبكرة طريق مجابهته كما اتضحت لسعاده ولم يحلل قائد أو مفكر أوضاع الأمة عبر فهم عميق لأوضاع العالم المحيط وظاهراته كما حلل أنطون سعاده منذ كتاباته الاولى موضوع هذا الكتاب . فهو أولا : يستوعب استيعابا كاملا خطورة الحركة الصهيونية وخطرها على مصير بلادنا وذلك منذ مطلع العشرينات ويرسي استيعابه هذا وانذاره وتحذيره الى فهمه طبيعة هذه الحركة وقواعد عملها : « رغبا عن كل ما تقدم ومن أن الحركة الصهيونية غير دائرة على محور طبيعي تقدمت هذه الحركة تقدما لا يستهان به فاجراءاتها سائرة على خطة نظامية دقيقة اذا لم تقم في وجهها حركة نظامية أخرى معاكسة لها كان نصيبها النجاح ولا يكون ذلك غريبا بقدر ما يكون تخاذل السوريين كذلك اذا تركوا الصهيونيين ينفذون مآربهم ويملكون فلسطين » (ص 109) وهو في هذا الاستشراف التاريخي لتقدم الحركة الصهيونية وخطرها يضع بذور نشأة الحزب — الخطة النظامية الدقيقة المعاكسة للحركة الصهيونية .

ثانيا : وهو يعي البعد القومي لمسألة فلسطين : « ونحن في هذا الموقف لا نريد أن ننكر العمل الذي قام به سوريا فلسطين : ولكننا نقول أن ذلك العمل لا يكفي لانه لا يشمل سورية كلها وينقصه التضامن الضروري لحياة الامم التي لا تتجزأ . فما دامت أعمالنا مترتبة على فئات قليلة لا يمكننا أن نقف في وجه التيارات الغربية التي تريد جرفنا من بلادنا » (110) .

وهو يكرر هذا الرأي ويوسعه في مجال آخر من الكتاب في مقاله : « سوريا تجاه بلفور » فيقول : « ذكرنا في ما كتبناه عن الصهيونية وامتدادها في الجزء المذكور من المجلة استتحال الحركة الصهيونية ، وأشرنا الى الخطر الذي يتهدد سوريا من وراء ذلك ، وقتلنا بالعدول عن الموقف الخجل الذي وقفه السوريون

تجاه محاولة الصهيونيين امتلاك فلسطين وتهديد سوريا كلها بخراب اقتصادي وسياسي مؤكد ، وأوضحنا أن محاربة الحركة الصهيونية لا يجب أن تقتصر على فلسطين التي هي جزء من سوريا بل يجب أن يتناول سوريا كلها التي يجب أن لا يحول دون تضامنها الفعلي لحفظ كيائها ونيل استقلالها التام ، التقسيم السياسي الذي وضعه سياسيو أوروبا وفقا لأغراض ومقاصد دولهم التي أخفوها تحت أسماء الوصاية والانتداب وما شاكل « (ص 116)

ثالثا : وهو في كل ما يكتب ، وفي مطلع العشرينات يعري الانتداب من ورق التوت ويظهره للبلأ على حقيقته ، صيغة استعمارية سافرة فيحمل عليه أشد الحملات من أول مقال الى آخر مقال ، كما أنه يؤكد وحدة سورية الطبيعية ومخاوف اللبنانيين حقيقة أساسية ينطلق منها في كل ما يكتب سواء في مقاله « الوحدة السورية » (ص 28) و « السوربون والاستقلال » (ص 31) أو « غورو وسوريا » (ص 25) أو « الوحدة السورية ومخاوف اللبنانيين » (ص 28) وذلك في 1921 . أو في المقالات اللاحقة كقائلة « الجنسيات » (ص 188) والتي يرفض فيها تعدد الجنسيات لمواطني الأمة الواحدة ويقول (ص 124) : « أما البرهان على حالة الشلل فظاهر في جميع القضايا الوطنية التي يتطلب حلها من الشعب . ففلسطين المنفردة في مقاومة الحركة الصهيونية والانتداب البريطاني تجاهد كثيرا دون أن يأتي جهادها بالغاية المطلوبة لأن اليهود لا يزالون يتوأمدون عليها ويشترون أرضها ويزاحمون أهلها على الحكم مزاحمة المتفوق ، وهذه حالة كان يمكن أن تتغير كثيرا لو كانت سوريا كلها قائمة بمقاومة الحركة الصهيونية » .

رابعا : وهو يتصدى للاستعمار والإمبريالية بأعنف ما يكون التصدي ومن موقع تقاطع الوعي بالارادة الثورية ، والتحليل والمقارنات الواسعة بالاستخلاص الحاسم للموقف . فهو يفضح في « غورو وسوريا » (ص 25) مآرب الاستعمار الفرنسي كما يفضح في « سوريا تجاه بلفور » (ص 116) المطامع الاستعمارية البريطانية المتحالفة مع الصهيونية وهو يدين الولايات المتحدة الاميركية قبل أي مواطن في العالم العربي ، بالنزعة الاستعمارية ، في إحدى أروع مقالات هذا الجزء : « سقوط الولايات المتحدة من عالم الانسانية الادبي » (ص 172) . وأن يقال هذا الكلام في الستينات أو السبعينات بات مألوفا ومعروفا ، أما ان يقال في العشرينات فاصابة لكبد الحقيقة من موقع الاستشراف البعيد النظر . وكنت ادانة سعادته الحازمة والصارمة للولايات المتحدة لانها وافقت على الانتداب الفرنسي على سورية وذلك قبل تورطها في الاربعينات بدعم الحركة الصهيونية بنحو ربع قرن . لقد كشف سعادته تحالف الولايات المتحدة مع الاستعمار الأوروبي القديم بينها مبادئ ولسن لم يجف حبرها بعد .

خامسا : ولا يقتصر رفض سعادته العنيف للاستعمار والإمبريالية وأخطارهما على سورية فهو مع انصباب تفكيره وجهده على القضية السورية

الا انه يحيا التعاضد الجبهوي العربي بأوسع معانيه فيتصاطف أشد ما يكون التعاطف ويتضامن أشد ما يكون التضامن مع الثورات العربية في مراكش ومصر فيكتب عنها مناصرا ومؤيدا بكل قوة ويكتب عن « ثورة الشرق » (ص 126) عنوان إحدى أروع مقالاته في هذا الجزء ، والتي يضطرم نارها من الصين والهند الى المغرب . انه يدرك الخندق العريض الذي يضم جميع مواطني الامبريالية في العالم مع توكيده على البعد القومي ، مروراً بالتعاضد العربي الجبهوي منطلقا للتضامن الأممي .

سادسا : وهو في مرافقته لثورات الشرق يؤكد مبدأ الكفاح المسلح طريقا وحيدا للتحرير : « نجد في نجاح الثورة المراكشية ما يؤيد ما نقول به من وجوب اعتماد الأمم المستعمرة على القوة والاجراءات الفعلية المنظمة . فالمرآكشيون ما كانوا يكونون أسياذ انفسهم وبلادهم لولا اعتمادهم على القوة والاجراءات الفعلية . وفي هذه الحقيقة نجد أيضا البرهان على اهلية الاستقلال الذي هو إحدى ذرائع الاستعمار عند الدول الطامعة ، فاستقلال مراكش يوحى لنا أن الاهلية للاستقلال هي نيله ، ولو كان المراكشيون انصرفوا الى اقتناع العالم بالكلام بأهليتهم للاستقلال لكان ذهب تعبيرهم باطلا كما ذهب تعجب غيرهم من الأمم التي هي أرقى منهم بكثير » (ص 213) . وهو المبدأ نفسه الذي يريده أن يسود في التعامل مع الصهاينة فيكتب في سوريا تجاه بلفور : « أجل : لا يخيف أصحاب الحركة الصهيونية التهويل من بعيد والجعجعة بل الشيء الحقيقي الذي يخيفهم هو الموت » (ص 118) .

وقد وعى سعادته ، حتى قبل وعى الفلاسفة الاجتماعيين المتجودين في العالم العربي وعى « الهوة بين الاجيال » وتخطاها بأن وجه كلامه في مايو 1925 الى الشبيبة السورية بأن « تقوم بواجبها نحو وطنها بكل امانة واخلاص ، غير مصغية الى اقوال فلاسفة الكسل والخمول أو الى اقوال المظلمين والمرجفين » خصوصا و « ان الذين يقولون أن الشبيبة مجنونة دائما يخطئون كثيرا . فان للشبيبة حكمة فائقة اذا كان لا يدركها الشيوخ فلأن العصر القديم لا يفهم العصر الجديد تماما » (ص 119) .

سابعا : ولم يرتب ويتابع في عصره قائد أو سياسي أو مفكر أحداث العالم بمثل هذا الشمول من اليابان الى روسيا الى أوروبا الى ثورات الشرق الى أميركا الشمالية والجنوبية حتى التشيلي . فقد كان سعادته ذا أفق دولي وشمول في النظرة والتحليل والمقارنات بين التجارب الإنسانية فاق كل معاصريه وأقرانه في العالم العربي . وهو ، على أرض الممارسة والواقع ، ينكر على رافعي الشعارات شعاراتهم ، فيكتب في « الحرية وأم الحرية » (ص 52) لبيدين فرنسا في استعمارها الشعوب وتكرها لمبادئ ثورتها ، كما يعلن سقوط الولايات المتحدة الادبي .

وهو يتنبه باكرا ، وفي العشرينات ، لاهية الحركة الشيوعية في جنوبي

وعنصرين . لذلك كانت الأمم الحكيمة ولا تزال تقدم على التعاون العنصري لا على الاتحاد العنصري ، متجنبين إثارة مسألة عنصرية في نفس الشعب الواحد . تمزقه تمزيقا « (ص 331) وهو يدين بالقوة نفسها العصبية الدينية ويعتبر انها مشوهة للعصبية الوطنية مؤكدا « يجب أن لا يفهم من هذا أن المبادئ الشعبية القومية منافية للدين . كلا ولكن المسألة مسألة أمرين مستقل كل منهما بخصائص ومزايا لا يمكن ادغامها بخصائص ومزايا الآخر بدون أن يؤدي ذلك الى نتائج سيئة في حياة الشعوب » (ص 333) وهو بذلك يرسي المنطلق لمبدأ فصل الدين عن الدولة .

ثامنا : وسعاده في هذه المقالات محلل سياسي وعالم اجتماعي وأديب ثوري في آن واحد ، ففي « مبادئ أساسية في التربية القومية » (ص 329) يظهر أسلوبه التحليلي العلمي في محاولاته الأولى ، وفي « كيفية الانتخاب في الولايات المتحدة » (ص 94) يبدو عالم الفكر السياسي المحلل ، وفي القضية القومية الصهيونية وامتدادها « (ص 108) يظهر المحلل القومي والقائد الرائد المستشرف أبعاد المسألة استثمارا مستقبليا نادرا ، « وفي رباعيات فرحات - تأملات وخواطر » (134) يظهر الناقد الأدبي الواسع الاطلاع وصاحب الباع الطويل في النقد الأدبي ، وفي « ذكرى الوطن والاهل » (ص 52) شعر منثور وأدب نابض بالحياة القومية : « يستوطن الناس غريب الاوطان وليس لي الا وطن » (ص 52) بل هو يتحدث بمرارة « مات أهلي » الجبرانية ولكنه يتخطى جبران بالنداء العلمي للكفاح فيتوجه الى مواطنه بالقول : « بيد انني اذا كنت قد طلبت منك مرة ومرات أن تضع يدك في يدي فذلك ليس لأجلي بل لأجلك أنت ولأجل الوطن والبقية الباقية من الاهل التي لا تزال تتعنا بناظرها من وراء البحار منتظرة منا فرجا » (ص 54) ، انه يؤلب النفوس حول الحركة التي ستشقى عتمة ليل الانحطاط بفجر النهضة . أن الأديب يتحول في نفسه الى ثائر ، يراقب ثورات الأمم ويختم بحثه بالسؤال : « متى يأتي دورنا نحن » (ص 214) . هذا هو سعاده العظيم .

تاسعا : واذا يسبر سعاده أغوار التجارب الإنسانية فهو يتمسك بالاصالة الحضارية والقومية ويصر على أن ما يعتبره الآخرون ميزة في السوريين ، وهي ظاهرة تقليد الأمم ، يعتبره عيبا كبيرا . « نأخذ مثلا القول الشائع بأن للسوريين مقدرة عظيمة على تقليد الشعوب الأخرى ومجاراتها في أساليبها وطرق تفكيرها تقليدا ومجاراة لم يكونا لغيرهم من الأمم . أقول : أن هذه المقدرة الدالة على بعض مزايا الفهم الحسنة هي الضعف بعينه ، فهي دليل بين على عدم وجود تربية قومية سورية تحمل الشعب على الاحتفاظ بنفسية وعقلية سوريين صحيحتين ، فالسوري ، أينما وجد ، يتبع غيره ، فهو في الجامعة الأميركية ، مثلا ، يقلد الأميركي وفي المدارس الفرنسية يقلد الفرنسيين ، وقل أن ترى سوريا يسير على طريق خاصة به ، وهذا عيب من أكبر عيوبنا القومية » (ص 335) .

شرقي آسيا ، قبل نصف قرن من انتصار ثورة فيتنام فيدحض مزاعم المستعمرين بأنه قضي على الثورة وأخمدت جذوتها ويتول في مقاله « تشكيلات الحزب الشيوعي في الهند الصينية » (ص 263) وهو يتحدث عن قادة الحزب الشيوعي في سجن سايفون وفي وقت يصرح وزير المستعمرات الفرنسي بأنه قضي على الثورة : « ويعيش زعماء الحزب حياة بسيطة هادئة لا تستلفت الانتظار اليهم بل أن أكثرهم يشبهون الزهاد والمتقشفين وقد اعتنقوا آراء موسكو عن عقيدة راسخة وبحماسة زائدة . . . ولا يستطيع الإنسان الا أن يشعر بالاضطراب تجاه هؤلاء الأشخاص الذين يضطرون لخصم لاحترامهم وتقدير تضحياتهم . وفي سجن سايفون اليوم عشرة من هؤلاء الشيوعيين يمتازون بالذكاء والاقدام ولا يتزحزون عن عقيدتهم بأن الشيوعية لا بد أن تنتصر في الهند الصينية وتطرد الافرنسيين من البلاد في وقت قريب . . . » (ص 264) ويجب الاعتراف بأن الدعاية الشيوعية في الهند الصينية أخذت في الانتشار والتقدم وظلم الطبقات العليا واستئثارها هو الذي يستفز الجماهير الى الثورة » (ص 264) .

ومن جهة أخرى فرغم ما أصاب الاشتراكية من تشويهات في مراحل الشيوعية الأولى في الاتحاد السوفياتي ورغم خسارة حزب العمال الانتخابيات في بريطانيا الا انه يرجح في السياق غلبة الاشتراكية على الرأسمالية والمحافظين فيقول : « ومع أن انتصار المحافظين في بريطانيا كان عظيما جدا فلا يمكن القول أن اندحار العمال كان نهائيا » .

« أن الاشتراكية سائرة الى الامام ووزارة العمال لم تبرهن عن تصور وسوء ادارة فلا يبعد مطلقا أن يكون انتصار المحافظين الباهر أشبه بتألق الصباح قبل انطفائه » (« سقوط وزارة العمال » (ص 201) ويقول في التجربة الشيوعية الأولى في روسيا ، في العشرينات وتعثرت : « بيد انه اذا كانت روسيا قد أساءت استعمال الاشتراكية فليس ذلك دليلا على فسادهها ولا يحط من شأنها عند الذين فهموها وآمنوا بها بل هي سائرة الى الامام بخطوات واسعة وأخذت في الامتداد في عواصم العسكريين والرأسماليين الاوروبيين وعمما قليل تسقط هذه العواصم سقوطها النهائي العظيم ، وهذه احدى نتائج تلك المأساة العالمية التي لم يسبق لها مثل في التاريخ » (ص 176) ، « الحقيقة أن الحرب العالمية كانت لهذه السياسة الجديدة أشبه بالزيت والشحم لالات القاطرة الحديدية . . . » « ويمكن أن يقال أن العالم سائر الى الاشتراكية بسرعة القطار المستعجل » (ص 176) .

ان سعاده يقبض على ظاهرات العصر كلها من تقدم الاشتراكية على الرأسمالية في العالم الى ثورات الشرق وإيمانه بانتصارها على الإمبريالية في ذلك الزمن المبكر الى يقينه ان الهند الصينية لن تبقى في أيدي الإمبرياليين . وهو يدين العنصرية ويرفضها في مرحلة انتشار افكارها وانتصار احزابها في قلب أوروبا فيعلن « ليس في العالم أمة واحدة ليست خليطا من أكثر من عنصر

في البرازيل

ولكن هذا التأكيد على الأصالة لا يعزل سورية عن التمدن الانساني بل يثبته . لان سورية كما يقول وهو يوجه كتابه التاريخي الى لويد جورج هي « الأمة التي وضعت حجر الزاوية في بناء التمدن ، الأمة التي فعلت في سبيل المدنية كل شيء » (ص 220) .

وأخيرا ، فان هذه المقدمة لا يمكن أن تلم بكل ما يختزنه هذا الجزء الاول من الآثار الكاملة من نور ومعرفة وهداية ثورية . ان هي الا اشارات على الطريق للتعلم أكثر في تراث سعادته العظيم . ولقد كان أمر جمع آثار سعادته الكاملة شاغلا للحزب السوري القومي الاجتماعي منذ 1960 عندما تولت عبدة الثقافة دفع الجزء الاول من الآثار الكاملة على أساس تصنيف المواضيع فاحتوى « الادب » أي كتابات سعادته الادبية ، الا أن التصنيف الذي اختارته عبدة الثقافة مؤخرا يتبع طريقتين . فمن جهة نشر الآثار الكاملة لسعادته حسب تسلسلها الزمني فنبدا بهذا الجزء الاول لمرحلة ما قبل التأسيس 1921 — 1932 وتتابع الأجزاء التالية على المنوال نفسه بحيث تجمع المقالة والمحاضرة والخطاب والدراسة والرسالة في كتاب واحد على أساس تتابعها الزمني وليس الموضوعي بحيث يرافق القاريء سعادته في كتاباته حسب المراحل التاريخية ، على أن تصدر مجموعة أخرى من المختارات المبوبة حسب المواضيع ، رأينا تسميتها بمجموعة « النظام الجديد » تيمناً باسم الجلسة التي كان يصدرها الزعيم في بيروت قبل استشهادة وجرى نشر بعض آثاره فيها بعد استشهادة في دمشق بين 1950 و 1951 . وستحوي هذه المجموعة من المختارات كتابات سعادته مصنفة حسب المواضيع بادئين « بسعادته في المسألة الفلسطينية 1921 — 1949 » . وهي طبعة موسعة لكتيب « مراحل المسألة الفلسطينية » الذي لم يشمل الا بعض ما كتب سعادته في هذا الموضوع الخطير .

ان عمدة الثقافة تقدر لجميع الذين أسهموا في هذا المشروع الجليل عملهم سواء المسؤولين السابقين في عمدة الثقافة أو الرفقاء الذين أسهموا في جمع هذا التراث ونشره وتخص منهم الرفيقيين جبران جريج وبدر الحاج اللذين أسهما بين 1971 — 1973 في جمع ونشر آثار الزعيم الكاملة في جريدة الحزب الاسبوعية واستحقا تقدير رئاسة الحزب يومها . كما ننوه بجهود الرفيقيين نواف حردان وجورج بندقي في المغرب بجمع آثار الزعيم وارسالها الى الوطن في السنوات الاخيرة .

عمدة الثقافة

المركز في 15 أيلول 1975